الفصل الخامس

عناصر عراقية قديمة
في احتفالات الربيع المعاصرة

حينما يرى البعض منّا تقليداً معيناً تمارسه مجموعة من الناس فمن البديهي أن تطرأ لهم فكرة ما في أن ما يشاهدوه هو من الأمور العابرة التي قد يشاهدونها في أي مكان. إلا أن الباحث المستقصي لتلك الأصول يرى أمام ناظريه عناصر أخرى لا يراها آخرون فيوصّل لنا تاريخنا وأسسها بما قد يعود لآلاف السنين. وفي هذه الإلمامة المبسطة استعرض احتفالاً ربيعياً قامت به مجموعة من الأكراد عام (١٩٣٠) في أرجاء من محافظة نينوى وسجّلها لنا عالم الآثار الألماني "هنري فرانكفورت" الذي كان ينقب عن آثار مدينة "دور شروكين" العاصمة الآشورية التي بناها الملك سرجون بين عامي (٧١٣- ٧٠٥ق.م).

لقد نشر فرانكفورت بحثه هذا في مجلة "عراق" الآثارية البريطانية باللغة الإنكليزية بعنوان "طقوس تموزية في كردستان" Tammuz Rituals in Kurdistan.

لقد سبقت الإشارة إلى أن الغاية من وراء طقوس الربيع هي لإخصاب الطبيعة ضمن منطق السحر الانجذابي أو التعاطفي عن طريق مبدأ المحاكاة. فحينما كانت الشمس تدخل برج الثور في نيسان كان ذلك بمثابة قران بكوكب الزهرة، الكوكب الدليل لبرج الثور. ولما كان هذا الأمر سماوياً كان لا بد أن يقوم به ما يمثل قوة السماء على الأرض، وقد اختاروا لذلك كاهناً وكاهنة. ثم حينما قويت السلطة السياسية وتقلصت لحدّ ما سطوة الكاهن الأعلى أخذ الملك يقوم بطقس يمثل فيه تموز وتمثل كاهنة جميلة الإلهة عشتار. كما مرَّ بنا سابقاً.

يقول فرانكفورت:

حينما كنت أنقب في قصر سرجون في "دورشروكين" لحساب معهد جامعة

شيكاغو استدعينا من دارنا ليلة العشرين من آذار ١٩٣٠، وسط أهازيج وتصفيق تصحبها رقصات كانت تجري في العراء. وأمام الباب رأينا قرويين جالسين وواقفين في حلقة دائرية يتوسطهم شخصان يقومان بالغناء والرقص. وكان أحد الرجلين يرتدي زي امرأة برداء أسود ويلبس الحجول والأساور والحجاب، أما الآخر فكان يرتدي قلنسوة مدببة عالية وجلد ماعز حول كتفيه وقد تم ربطه. كما كان يحمل عصا ثقيلة، وكانت اليدان سوداوين (أي مصبوغتان بالأسود). وبعد أن قاما بالرقص مقابلين لأحدهما الآخر اضطجع الذي بمظهر الرجل على الأرض. وهنا أظهرت المرأة حزنها وشرعت تلطم صدرها وتلقي التراب على رأسها، في نفس الوقت الذي استمرت فيه بالرقص. وكانت تجلب انتباه الآخرين إلى الرجل الملقى أرضاً. وكانت الرقصة عبارة عن محاكاة جرت بصمت في حين استمر الحاضرون بالغناء والتصفيق. ثم ألقت "المرأة" بنفسها إلى جانب الرجل مفعمة بالأسى.

وفي تلك الأثناء خرج أحد رجالنا (أي المشتغلين مع البعثة في التنقيب) من الدار وألقى بسطل من الماء، على الرجل المُسجّى، وواضح أن وجود ما يمثل "المرأة" إلى جانب الرجل فيه ما يشير إلى الزواج، ولو بشكل رمزي.

بعد ذلك قاما وركبا عصا وأخذا يسيران بها. وقد كان في هذا المشهد ما يوحي بأن الغاية منه جلب المطر.

ثم قال:

لقد كان الجيران الحاضرون من منطقة الفاضلية الذين يرسلون (شخصاً يدعى) "قاسم البغل" للرقص مع رجل آخر من "خرسباد" ليمثل دور المرأة. وفي القرية كانوا يجرون من دار إلى أخرى. وكان لزاماً على كل دار أن تعطيهم شيئاً، وكانت الهدية على العموم طعاماً. وبعد تجميعه يجتمعون لتناوله كوجبة طعام، ثم يصلّون إلى الله طالبين هطول المطر. أما إذا رفض أحد من الناس أن يعطي شيئاً يقوم القرويون بدخول داره وتحطيم كل شيء يقع بأيديهم!!.

ومما قاله فرانكفورت:

لقد أبلغنا "قاسم البغل" بوجود ذيل من جلد ماعز أسود وقرون من المادة نفسها يلبسها الراقص. ويقوم أكراد الجبال بالرقص في وضح النهار، وهم لا يخضعون فقط لحية معمولة من شعر الماعز، بل خراطيم أيضا معمولة من العظام والخشب، وهذا ما كان يعمله الناس في منطقة "الفاضلية" في الأيام السابقة.

ثم تطرق "فرانكفورت" إلى الأغنية التي كانت تصاحب الرقص، وأشار إلى صعوبة ترجمة النص. ثم أشار إلى أنه كان في الفاضلية سنة ١٩٣٣ وقد شهدت المنطقة انقطاعاً في المطر. وكان هناك شخص يدعى "خضر باقر سرناجي" لديه معرفة وافية بالتقاليد الكردية وأشار إلى أن الأغنية كانت تبدأ بكلمة لم يستطع أحد منهم ترجمتها، وقال بأن كلمة "قز" تعني الرجل الذي لم تنبت له لحية و"برات" يجب أن تعني امرأة. إلا أنه قال بأن الأكراد أبلغوه بأنها كلمات قديمة ولا يمكنهم ترجمتها.

لقد كانت كلمات أغنية "باقر سرناجي" الآتي:

كـــــــــــــوزبرات، كـــــــــــــوزبرات
أتـــــــى المطـــــــــر، أتـــــــى المطـــــــــر
وســــــــتأتي الغلـــــــة والثقـــــــة عاليـــــــة
المنجـــــــــــــــل جـــــــــــــــاهز
واجعـل اعـداد كـثيرة لحصـد (الحبـوب). كـن علـى
(حبوب) ولكن القليل منها. ضعها على سرج التحميل
اجلبهـــــــا إلى الحقـــــــل المـــــــدروس
وقـــم بتهيئـــة الأكـــوام المدروســـة (مـــن الحبـــوب)
ولا تـــــترك ســــــنابل القمـــــح شاخصـــــة
وقـم بغربلتهـا مـراراً وتكـراراً في مهـب الـريح الغربيـة
إن مـــــثمّن أســــعارها ســــيأتي لتقـــــديرها
إن حصـــة الدولـــة، وحصـــة قســـم (الثـــابو؟)
(ومـــع ذلـــك بقـــي) ٥٦٠ كميـــة في المخـــازن
فقـم بخزنهـا وضـع الطـين عليهـا لكـي لا تـأتي
الطيـــــــــــــور إليهـــــــــــــا.

ثم يأتي دور "قاسم البغل" ويغني المضمون عدة مرات قائلاً:

قــز رابــات (واقفــة)، أمــام البيــت

الحنطـــــــــة في المخـــــــــزن

الشـــــــــعير في المخـــــــــزن

والبرغـــــــــل في الكـــــــــيس

والســمن موجــود في الآنيــة المزججــة

ســـــنعطيك حبوبـــــك ومـــــاءك

معجـــزة مـــن الله، إن شـــاء الله

إنـــــــه ســـــــيهب المطـــــــر

يـــــا إلهـــــي، يـــــا إلهـــــي

يارســـــــــــــــــول الله

يامســـــيح، ياموســـــى، ياجبريـــــل

نســـــتجيركم بـــــالله أن يرزقنـــــا

أتـــــــــــت البركـــــــــــة

أتـــــــى موعـــــــد الحصـــــــاد

لقد حزمنا الحنطة على السرج ...إلخ.

ثم يقوم صاحب البيت بسكب الماء، ويأخذ خضر باقر بالغناء قائلاً:

تعـال أيهـا المطـر، تعـال أيهـا المطـر

إن معـــــــــدتي مضـــــــــطربة

وقـــــــــدمي عاريـــــــــة

لقـــــــد أتيـــــــت لـــــــيلاً

لأنـــني أبـــدو عاريـــاً أثنـــاء النهـــار

الطحـــــــــين والكـــــــــيس
الســـــــــمن في الجـــــــــرار
وإذا كـــان هنـــاك ثمـــة شـــخص مـــا
فـــإن زوجتـــه مـــن بنـــات الهـــوى!.

وهناك أغنية أخرى "لخضر باقر" لمناسبة الربيع تقول:

لقـــــد أتـــــى، لقـــــد أتـــــى
الغيـــــث أتـــــى، الغيـــــث أتـــــى
لقـــد أتـــت أوعيـــة الحبـــوب المليئـــة
لقـــــــــــد جنيناهـــــــــــا
لقـــــد وضـــــعناها في أكـــــداس
لقد وضعناها على السرج (أي نقلناها).

ومما تحدّث فيه "فرانكفورت" أغاني بعض الأعراب الذين كانوا يقطنون منطقة الزاب الأعلى، وأشار إلى امتلاكهم أغاني تخص دعوة المطر إلى الهطول:

يـــــــــــا أم الغيـــــــــــث
أمنحينـــــــــا المطـــــــــر
إن راعينـــــا هـــــو حميـــــد الأصـــــلع!
ولعـــامين لم يبـــذر الحـــب (لقلـــة المطـــر).
آملين أن تكون الذرة لارتفاع الباب هذا العام
والشـــــعير بأكـــــداس لا حصـــــر لهـــــا
اعطينـــا المكافـــأة (البخشـــيش) في المنخـــل
وينمـــــــــو ابنـــــــــك غـــــــــداً.

ومما قاله في ذلك بأن "أم الغيث" مهم لأن العرب في الجانب الآخر في سورية يستخدمون التعبير نفسه عند التغني في طلب المطر. وحينما كان رؤساء القبائل يقومون بالتضحية إلى الله طلباً للمطر تقوم النسوة بعمل فزّاعة (أي دمية) من الأغصان جاعلين شكلها على هيئة امرأة كثيرة الزينة يسمونها "أم الغيث" ثم يشرع الناس برفعها في

موكب ويتبعها النسوة المغنيات. ومما أشار إليه الباحث بأن لحية الماعز ترتبط بإلهة الخصب السومري الذي يصحبه الماعز أو الخراف. من الواضح أن وجود امرأة ورجل في الرقص ثم الرقص بما يوحي بفكرة الزواج إنما يرجع هذا التقليد إلى عهود موغلة في تاريخ العراق القديم، أي فكرة الزواج المقدس لإخصاب الطبيعة، ولكن لما كانت التقاليد التالية لا تسمح بالقيام بذلك بين رجل وامرأة لجأ القرويون إلى قيام رجل بدور المرأة بشكل رمزي. أما وجود دمية "الأم الغيث" فهي إشارة إلى تقاليد قديمة إلى ما يمثل الإلهة عشتار وعلاقتها بالربيع، في حين تمثل أغاني وأهازيج الربيع عكس التفاؤل بالخير لجلب المطر ليهل عام مليء بالخير.

وهكذا نرى أن الفولكلور الكردي بخصوص احتفالات الربيع قد استمد تقاليده من عناصر عراقية قديمة أصيلة.